اول رائد مصري حديث

(١٣ تابع ما قبلهُ)

وفي ٢٨ من ابريل بدأنا السُرى لان للسرى ليلاً مزية على السير نهاراً يرى المسافر الوقت ينقضي سريعاً الاَّ اذا كان قد اضناهُ التعب ويرى لهُ من النجوم رفيقاً ايناً يسليهِ اذا كان من عاشقي الطبيعة. وكنا نرى جبال عويبات في الافق قائمة امامنا فنطمئن اليها لان السلامة تزول اذا كان امام المرء غرض محدود يسعى اليهِ بدلاً من ان يسير في عرض القفر على غير هدى لا يرى امامهُ الاَّ ابعاداً شاسعة لا حدَّ لها. ولما دنونا من تلك الجبال ظهرت الشمس فوقها وافاضت على قننها من اشعتها الذهبية فالقت على الارض ظلالاً ظليلاً كنا نراهُ يتقلص و يقصر رويداً رويداً بدنونا من الجبال فنصبنا خيامنا عند الزاوية الشمالية الغربية وهناك شِعب في طرفهِ عين ماء والجبل قائم على جانبيهِ كشاهق تسند قدميهِ حجارة كبيرة وصغيرة فعلت بها انياب الدهر فازالت زواياها ومحتها سهلاً. والعين ليست ينبوعاً جارياً بل قلَّتْ في الصخر تجمع فيهِ مياه المطر

وقمنا في الصباح وصعدنا في الجبل الى العين الكبرى وهي غزيرة المياه طيبتها تحيط بها قصباء دقيقة القصب . وفي اخريات النهار اسمنا في الواحة حتى اذا كان منتصف الليل دخلنا وادياً تحيط بهِ التلال عن يسارنا والجبل عن يميننا . والوادي ناعم الرمل كثير الحجارة السير فيهِ شاقٌّ على الجمال . ووقفنا عند الفجر صليا الصبح وشربنا الشاي حتى اذا كانت الساعة السابعة دخلنا وادياً واسعاً بين جبلين شامخين ارضهُ منبسطة كالكف وفيهِ عشب واشجار من السنط والحجم اذا مرثت اوراقها يدك شممت لها رائحة كرائحة النعناع . وهناك كثير من نبات الحنظل وهو عريض الورق لهُ ثمر اصفر مستدير كالليمون الكبير الحجم يغلي السكان بزرهُ حتى تزول مرارتهُ ثم يصحونهُ مع التمر والجراد في هواوين من الخشب ومنهُ اكثر طعامهم

ونصبنا خيامنا الساعة العاشرة وتغدينا ثم قمنا واكلنا وسرت انا لاشاهد آثار الانسان في العصور الخالية فاذا هناك رسوم حيوانات منقوشة في الصخر تجد فيها رسم الاسد والزرافة والنعامة وانواع الغزال ورسوماً كالبقر . والنقش غائر في الصخر من ربع بوصة الى نصف بوصة. ولم اقف على تاريخ هذه النقوش ومتى استطعت نظري بنوع خاص امران

الاول ان الزرافة لا تقطن تلك البلاد الآن ولا توجد في قفر مثل هذه القفر والثاني ان ليس بين هذه الرسوم رسم الجمل مع انهُ يستحيل على المرء ان يصل الى هناك الاَّ اذا كان الجمل مطيتهُ. فهل كان الذين نقشوا هذه الصور يعرفون النعامة ولا يعرفون الجمل مع ان الجمل أُدخل الى افريقية من اسيا نحو سنة ٥٠٠ قبل المسيح . ولم ارَ هناك من انواع الصيد الاَّ الغزال والضأن الجبلي ونوعاً صغيراً من الثعلب رمادي اللون

عدنا الى خيامنا صباح الثاني من مايو فوجدنا الشيخ هري في انتظارنا ويلقب بملك العوينات مع ان سكانها ١٥٠ نفساً . وقد اتفقت معهُ لكي يرافقنا الى اردي كدليل

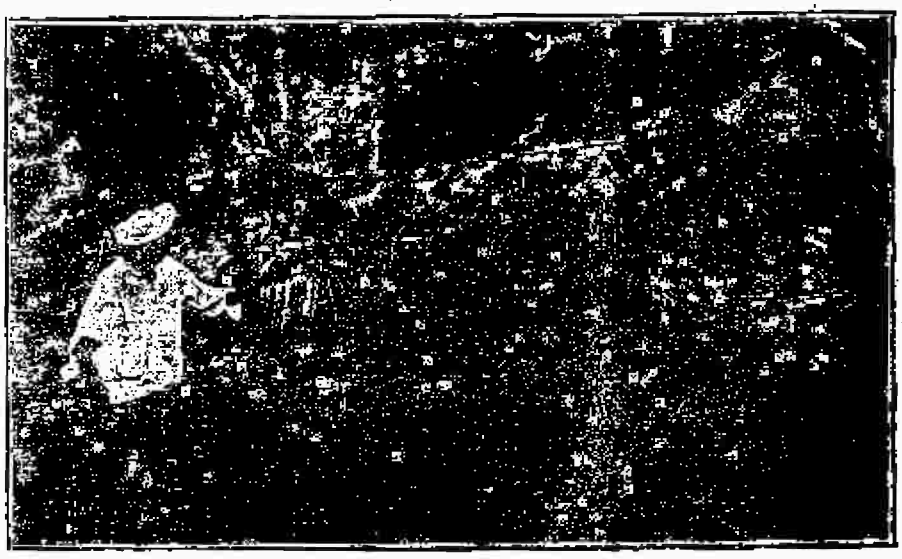

رسوم الحيوانات المنقوشة في الصخر التي كشفها حسين بك في عوينات

وقمنا من هناك مساء الاحد في السادس من مايو وسرنا في ارض منبسطة وهي رمال تغطيها الحصى وهنا وهناك شيء من الحشيش فكانت جمالنا تقوت به فقطعنا ٥٤ كيلو متراً في ١٢ ساعة

وفي التاسع من مايو كنا سائرين فشعرت نحو الساعة الثامنة ليلاً ان الريح تهب في وجهي وكان الجو مطيناً بالغيوم فالتفت الى الخلف (البوصلة) واذا نحن سائرون الى جهة الشمال الشرقي بدل الجنوب الغربي فاتضح لي ان دليلنا سكر اضاع رأسهُ. وهنا مشكل يجب مداواتهُ بالحكمة لئلاَّ يفقد الدليل ثقتهُ بنفسهِ وزاد الطين بلة ان ثارت زوبعة رملية

اطفأت المصباح الذي يسير بهِ امامنا فاختلط الحابل بالنابل واشتدَّ عصف الرياح وادركنا كل احد انهُ ضلَّ السبيل فصممت على السير مسترشداً بالملك واضأنا المصباح وسرت في المقدمة والملك في يدي وبعد ساعات قليلة هدأت العاصفة فاذا نحن بين كثبان من الرمال

وفي العاشر من مايو بلغنا الجرد وهي مرتفعات من الرمال جوانبها تكاد تكون قائمة تسير الجمال عليها فتخوض فيها الى التركب . وفي الثاني عشر منهُ شرعنا في السير الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر وقطعنا سبعين كيلومتراً دفعة واحدة ثم حططنا رحالنا قبيل الساعة العاشرة صباحاً وارسلنا الجمال الى التلال المجاورة لترعى فيها

وفي الرابع عشر صار همنا الاكبر الوصول الى اردي لان ماءنا كاد ينفد وكلت جمالنا من التعب ورأى اثنان من رجالنا اثار وَرَل فاقتفياهُ الى جحرهِ وبحثا عنهُ وامسكاهُ وهو لا يعض ولكن ذنبهُ كالسوط فيضرب بهِ . والبدو والزنوج يستعملون دهنهُ دواء لداء المفاصل و يقولون ان رأسهُ عوذة تقي من السحر . وهنا كثرت الاودية وهي كثيرة الكلاء والحشيش دليلاً على اننا دنونا من اردي ولكننا لم نرَ تلالها الحمراء الاَّ صباح السادس عشر من مايو . وأجمع رأينا على النزول في وادي اردي نفسهِ لافوقهُ لكي نكون على مقربة من الماء مخافة من طارق يفاجئنا ونحن بعاد عنهُ فصعدنا حيداً الى ان بلغنا اعلاهُ فاشرفنا منهُ على وادي اردي وهو ضيق طولهُ ٨ كيلومترات وعرضهُ نحو ١٠٠ متر تحيط بهِ صخور شاهقة حمراء اللون فابتهجنا برؤية ما فيهِ من الاشجار الغبياء والمروج الخضراء . وهذا الوادي غير نافذ وفيهِ بئر تغطيها الصخور وهي بركة كنصف دائرة طولها ستة امتار وعرضها ثلاثة ومن رأيي ان ماءها خليط من ماء المطر ومن ماء نابع في الارض . والوادي جميل بما فيهِ من الخضرة وما يحيط بهِ من الصخور الحمراء القائمة حولهُ كالجدران

وهنا حذَّرنا دليلانا من السفر ليلاً لكثرة ما في البلاد من التلال والوهاد فقمنا في السابع عشر من مايو الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحاً ولما خرجنا من الوادي رأيت الفرق الكبير بينهُ وبين اودية اركنو والعوينات فان ارض الاودية هناك على ارتفاع الارض حول الجبل واما هنا فالوادي اعمق من السهل الذي حول الجبل . ولما خرجنا منهُ جزنا في ارض جبلية صخورها سوداء وحمراء وقبلما انقضت مرحلتنا رأينا تلالاً اتجاه في

الافق و بلغنا وادي اجاه في العشرين من الشهر ولم نرَ في وادٍ حتى الآن ما رأيناهُ فيهِ من كثرة الاشجار والنباتات . والبئر فيهِ مثل بئر اردي ولكن الجمال والقطعان عبثت بمائها فافسدتهُ . والطيور كثيرة هنا تطرب الاذن باصواتها . واردنا ان نبتاع بعض الخرفان من السكان فابوا حاسبين ذلك عاراً عليهم لكنهم اهدوا الينا ثلاثة خرفان ضيافة وابوا ان يأخذوا ثمنها فاهديناهم مقاطيع من البفت الازرق فسرّوا بها

واستأنفنا السير في ٢١ مايو قبل غياب النجوم واذا امامنا ثلاثة غزلان فتبعها ثلاثة من رجالنا واطلق حامد بندقيتهُ على واحد منها فاخطأهُ لكنهُ اقسم بالله انهُ اصابهُ ورأى الدم يفور من بدنهِ . ولما جلسنا الظهر للغداء جرح واحد يدهُ وهو يقطع بضعة من الخروف الذي شويناهُ لغدائنا فسألتهُ من اين هذا الدم فاجاب آخر هذا من غزال حامد فتفهقه الرجال مسرورين . و بعد الغداء كنتُ ادير ساعاتي واكتب قراءات البارومتر والثرمومترين اللذين يدل احدهما على اعلى درجات الحرارة والآخر على ادناها واذا بحامد يعدو الينا وهو يقول انهُ رأى نعرتاً من النعام فامسكنا بنادقنا استعداداً لما فرت بنا وهي نحو ثلاثين او اربعين نعامة فاطلق الرجال بنادقهم عليها وهي لا تزال بعيدة وعدا حامد وامسك بعنق واحدة منها فضربتهُ برجلها في خاصرتهِ وافلتت فعاد الينا و يدهُ على جنبهِ فسألتهُ هل آذتك فقال كلا فقلت لماذا لم تأتِ بها اذاً فقال لاني وجدتها انثى

وقمنا الساعة الخامسة وسرنا في الوادي ساعة من الزمان ثم صعدنا في الاكام فلما بلغنا اعلاها رأينا ذلك الوادي تحتنا كبساط من الزبرجد ترصعهُ الاشجار والاثجم وبقع الرمل الوردي وتخيط بهِ صخور وتلال حمراء . ونسيم الماء يقبلهُ هديل القماري وغابت الشمس حينئذٍ فاكتسى الجو حلّة من الارجوان لا يناها من يراها

بلغنا اينباه في ٢٣ مايو والماء هناك عذب قراح وعليهِ جماعة من قبيلة البديات ومعهم كثير من الغنم و بعض الخيول فخرجوا لاستقبالنا فصافحتهم وصببت على ايديهم قليلاً من الروائح العطرية فاتونا بالخرفان ضيافة وجاءنا نساؤهم بالسمن والجلود ليبعنها منا لان البيع والشراء في ايدي النساء . وبينما كنت ارصد في الماء رأى الرجال الشيودوليت والمصباح الكهربائي فاوجسوا شرًّا ودخل احد شيوخهم خيمتي ورآني افتح صندوق آلة من آلاتي فاطفتهُ لما رأيتهُ ولكنني انتبهت الى ما في عملي هذا من الخطإ لانني رأيت امارات الشر في وجهِ

كانه حسب ان الصندوق مملوء ذهباً. ولما خرج من خيمتي وديت اثنين من رجالي ومرتهما على مسمع منه ان يتخذا دورهما في حراسة المعسكر خوفاً من ان لا يدع احد من النساء او الاولاد يدنو منه. فلما لاحظ رجالي ارتياحاً عليه خطف قدمي ذلك الاربة من على حذر فاصاب قوائم ثوري

وسرنا من هناك الى ان بلغنا وادياً كبيراً تمتد كوتي مينا ممتداً من الشرق الى

امرة من قبيلة بدبات

الغرب تغطيه اشجار كبيرة وكان فيه جماعة من قبيلة الجرسن ووصل اليه ونحن هناك تاجر قادم من وداي ومعه بقر وغنم وهو ذاهب بها الى الفاشر. وسرنا في ٢٦ مايو مقتفين آثار الغنم والجمال الى ان بلغنا وادياً كبيراً جداً فيه كثير من الاشجار الظليلة امتد كب تركو وكنت حسب انه نصل الى باو صباح السابع والعشرين حسب

قول الدليل هري ولكن انقضى النهار ودخل الليل ولم نعد لان هذا الدليل اخطأ في تقديره . وكان ماؤنا قد نفد كلهُ ما عدا قربة واحدة . فتابعنا السير الى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين فوصلنا الى ارض صخرية يتعذر السير فيها في ضوء القمر وكنا على حافة وادٍ ادّعى هري انهُ وادي باو لكنني لم اصدقهُ ولم اسمح للرجال ان يشربوا ماء القربة الاَّ حينما نبلغ مكانًا فيهِ ماء فبتنا تلك الليلة من غير عشاء لكي لا نشرب

وكان النزول الى الوادي عسراً جدًّا لكن كان لا بدَّ منهُ فنزلنا الى ان رأينا في الوادي غنماً وكوخًا فاذنت للرجال ان يشربوا ماء القربة واقبل نفر من الجرعان والبديات لقائنا وفاؤهم حسان المنظر يشتملن بثيابهن اشتمالاً ويضفرن شعورهنَّ ويتحلين بحلى من الفضة والعاج وفي اعناقهن عقود من الخرز والكهرمان والبنات يكتفين بوزرة يستترن بها عوراتهنَّ والرجال عراة في الغالب وهم يحملون العضل يحمل الواحد منهم حربتين او ثلاثًا وسيفًا وسكينًا يرشق بها خصمهُ رشقًا . واما شيوخهم فيرتدون اردية بيضاء ويعتمون . اعطينا النساء من المكرونة فلم يأكلنها بل نظمنها عقودًا تتقلد بها والحال دار الاخذ والعطاء بينهن فتبادلن هذه العقود بالسمن والجلود

وقمنا من هناك في الثلاثين من مايو وانبسطت الارض امامنا وقلَّت الاودية والاشجار الكبيرة ورأينا آثار الاسد . وبلغنا وادي هوَر في اول يونيو وهو كنصف دائرة وفيهِ اشجار كبيرة وارض زراعية كارض مصر . والارض بعدهُ قليلة الشجر ولكنها كثيرة العشب . ومررنا امام تلة تسمى قابيرة على رأسها شجرة يابسة وهي الحد الفاصل بين ودّاي والسودان

ونهضنا في الثاني من يونيو باكرًا لكي نصل الى فُورَوَيَّه ذلك اليوم فمررنا في الساعة الخامسة صباحًا امام حجر كرارا وكان على عشرة كيلو مترات عن يميننا وبعد ساعة مررنا امام حجر اردو وهو تل ارتفاعهُ نحو ٨٠ مترًا وطولهُ ٢٠٠ متر . والحجر بلغة السودان الاكة الصغيرة . ثم نزلنا الى وادي فورَوَيَّه وهو اكبر وادٍ وآهَل وادٍ مررنا بهِ في رحلتنا حتى الآن وسكانهُ من الزغاوى وقليل من البديات . وكنا ننتظر ان نجد طعامًا في هذا الوادي فلم نجد وكان سكَّرنا قد نفد منذ ثلاثة اسابيع فكنا نحلّي الشاي بدقيق التمر . ونفد ايضًا ما معنا من الدقيق والرز ولم يبقَ الاَّ المكرونة فعافتها نفوسنا . فكتبت الى

سليم باشا حاكم دارفور في العاشر لنرسل الينا طعاماً وثياباً لرجالي لان ثيابهم صارت اخلاقاً وارسلت الكتاب مع رسول استأجرتهُ بعد عناء كثير

اقمنا في فورويه ثلاثة ايام وكانت السماء تمطر كل يوم واكثر رجالي من اكل اللحم ولكنهُ لم يغنهم من الشاي والسكر

وفي ٦ يونيو سرنا في طريق مطروق جنوباً وكنا نمرُّ في طريقنا بقرى صغيرة بيوتها اكواخ من القش وبلغنا ام بورو في اليوم التالي فنزلنا قرب البئر ونهضنا في الصباح باكراً على صوت الغنم والبقر آتية لتشرب وبعد ساعة قامت سوق الى جانب خيامنا لاننا كنا قد نصبناها بملاصقة لشجرة كبيرة وهي في وسط مكان السوق ولا يحضر السوق الا النساء فهن يبعن ويشترين بالسمن والجلد والحصر والذرة والقطن والملح يتبادلنها مبادلة والرجال مقبلون كسالى

والمرحلة التالية كانت خمسة ايام الى كُتُم قطعنا فيها ١٢٩ كيلو متراً والطريق مطروق وكنا نقوم في الصباح ونقل العصر . وفي البلاد تلال كثيرة تغطيها الاشجار والحشيش وبينها بقاع حرق عشبها استعداداً لزرعها

وفي صباح اليوم الرابع جاء في رجل يقول انهُ رأى عن بعد عسكرياً راكباً جملاً (هجاناً) وبعد قليل وصل هذا العسكري ومعهُ كتاب من المستر تشارلس دبوي حاكم دارفور بالنيابة لان سليم باشا كان قد استعفى ومعهُ شيء من الرز والدقيق والشاي والسكر والسكاير وقد كان سرورنا بالسكاير على اشده لان ما كان معي منها نفد كلهُ بعد خروجنا من اردي . ولما بلغنا بيت الحكومة في مرابع جعل رجالي يغنون ويطربون واقاموا قالب السكر في وسط ساحة وجعلوا يرقصون حولهُ والعسكري ينظر اليهم مدهوشاً حاسباً انهم جنُّوا ولا يعرف الشوق الى السكر الا من حرمهُ اياماً متوالية

وصممت على ان نسرع السير لان مؤونتنا كادت تنفد كلها فبلغنا ضواحي كُتُم في الرابع عشر من الشهر وشاهدنا حينئذٍ كوكبة من الخيالة تتدانو منا فقابلناها بالهتاف وكان ابهج شيء في نظري رؤية الجنود السودانيين بملابسهم العسكرية وكان في الكوكبة معاونان وعشرة جنود وقاض وكاتب وبعض وجوه كُتُم فصافحتهم كلهم وسرنا تحت لوائهم ولما دنونا من المركز خرج النساء لاستقبالنا لابسات البياض يقرعن الدفوف وينشدن الاناشيد فدخلنا المركز واقمنا فيهِ وحولهُ وعادت النساء الينا وهن يغنين ويرقصن فسرَّ

رجالي واستأذنوني في اطلاق بنادقهم عند اقدام البنات فاذنت لهم فاطلق البنات اولاً لانهن لم يألفن ذلك ولكنهن ادركن المراد حالاً واستأنفن الغناء والرقص والزغردة فزال كل ما كنا نشعر به من وعثاء السفر

اقمنا يومين في ضيافة المعاونين لان المستر اركل المفتش كان في الفاشر . وقمنا في السابع عشر من يونيو فوصلنا الى الفاشر بعد يومين كانا من ايام السرور والبهجة لاننا شعرنا اننا رجعنا الى العمران الذي كنا نشتاق اليه . ولما مررنا على ثلاث ساعات من الفاشر نزلنا لكي نستعد لدخولها فلبست وكان المستر ديوي قد بعث الينا مقداراً من البفت الابيض الى كتم فالتحف به رجالي ثم استأنفنا السير واذا بكوكبة من الفرسان آتية للقائنا فصرّ جوادي اذنيه وعدا الجم وخرج المستر ديوي على جواده للقائنا فتصافحنا مصافحة الاصدقاء ورحب بنا الضباط كلهم من انكليز ومصريين واضافنا المستر ديوي في بيته . وهناك مركز للتلغراف اللاسلكي فاستعلم مديره لي عن وقت غرينتش (بانكترا) فاذا خرونومتري لم يفقد الا ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية في ثمانية اشهر اي اقل من ست ثوان كل يوم . واقمت عشرة ايام في ضيافة المستر ديوي والضباط واعيان المدينة فانهم لم يتركوا وسيلة لاكرامنا . ومررنا من هناك الى الأبيض وركبت منها الى الخرطوم فالقاهرة فبلغتها في اول اغسطس سنة ١٩٢٣

***

ولا يسعني لن اختم هذه الخطبة من غير ان ابدي جزيل شكري للسردار السر لي ستاك باشا حاكم السودان العام والمستر ديوي مدير دارفور بالنيابة والمستر كرايج مدير كردفان ولكل الضباط والموظفين والاعيان في حكومة السودان على ما لقيت منهم من العناية وحسن الضيافة انتهى

[المقتطف] انتهت الخطبة وقد قوبلت بمزيد الشكر والاعجاب وسنأتي في فرصة اخرى على خلاصة الحقائق العلمية التي ادّت اليها هذه الرحلة كما بيّنها الدكتور جونس أول مدير مباحث الصحراء والدكتور هيوم مدير مصلحة المساحة الجيولوجية في القطر المصري